

الفصل الثامن

الاديان في الحبشة

(1) المسيحية :

معظم سكان الحبشة الأصلية⁽¹⁾ مسيحيون ، كانوا يهوداً حتى سنة ٣٢٠ ميلادية ، فجاءهم نفر من المسيحيين كانوا في سفينة تسير في البحر الأحمر . فارتطمت بإحدى الشعاب المرجانية ففرقت ، ولكن كتب الله لهم السلامة . ولما مثلوا أمام النجاشي تأثر بمظهرهم ، ونخبهم ، فتنصر بتأثيرهم ، هو وجم غفير من حاشيته ، وكبراء دولته . ورجع أحدهم إلى الاسكندرية ، وقص على بطريركها (البطريرك) قصتهم ، وأنهى إليه رغبتهم في تنصير أهل الحبشة جميعاً ، وهون عليه الأمر ؛ فعينه مطراناً للحبشة فقل إليها راجعاً . وأبلى ، هو وورقاؤه بلاء حسناً في تنصير الحبشان . ومنذ ذلك العهد أصبح تعيين أسقف مصرى مطراناً للحبشة تقليداً دينياً ، وعرفاً متبعاً يحافظ عليهما الحبشان ويحرصون على استمرارهما . ولقد بلغ من حرصهم على ذلك أن طلبوا النص عليه في أحد بنود المعاهدة التي أبرمت أخيراً بين مصر والحبشة وبريطانيا العظمى .

وإن لهؤلاء المطارنة المصريين منزلة كبيرة عند الحبشان ، فهم الذين يتوجون بأباطرة الحبشة . وهم الذين يحلون الناس (الحبشان) من بيعتهم لهم إذا دعى الأمر إلى ذلك . وهم الذين يعينون القسيسين . ولقد بلغ من حبهم لهم ، واحترامهم إياهم ، أنه إذا مر أحدهم على قرية أو في إقليم من الأقاليم الحبشية ، خرج الناس إلى الطريق

(1) أي الجهات الوسطى الشمالية من إمبراطورية الحبشة الحالية التي تضم بلاد الجلاء والذناكل وجزءاً كبيراً من بلاد الصومال .

التي يمر بها ، وازدحموا على جانبيها ، وما يكادون يشاهدون طلعتة ، حتى يسجدوا له
ويكفروا ، ويعفروا وجوههم في التراب أو الطين ، إجلالاً له واحتراماً .

ولكن يظهر أن ما تحمله الحبشان في أثناء احتلال الإيطاليين بلادهم
من اضطهاد وعنت ؛ وظلم وكبت ، وقلب للأوضاع المرعية عندهم ، زاد من كرههم
للأجنب . وأحيا في نفوسهم النزعة إلى الاستقلال الديني ، استقلالاً لا يخرجهم من
حظيرة الكنيسة المصرية التي ظلت ترعاهم ستة عشر قرناً ونيماً (٣٣٠ م — ١٩٣٩)
وذلك بأن يستبدلون مطراناً حبشياً بالمطران المصري .

ولقد شاع هذا الشعور في نفوس الحبشان ، وتحدثوا به ، وتجادلوا فيه ، وجرى
على لسان شاعرهم كيداناً حيث يقول :

« الأقباط مغتبطون . متى يجتمعون ليقرروا ؟

إنهم لا يصنعون شيئاً ، ففخرهم بالاسم فقط .

في بلادنا ألقاب عظيمة لرجال الدين .

هي ألقاب مطارنة ، ليست لصعاليك .

لا حرية لهم في بلادهم كغيرهم من رجال الدين !

.....

فالسوريون والأرمن يختارون ويرسمون لهم ،

بطريركا ومطراناً دون أن يكون لهم ملك .

لا يوجد في العالم جنس آخر غير الأثيوبيين ،

لا يختارون ولا يرسمون من جنسهم مطراناً^(١) .

وربما كان من أسباب تقوية الحركة الانفصالية عند الحبشان تعيين الإيطاليين

مطراناً حبشياً في أثناء احتلالهم .

.....

(١) ترجمة الأستاذ مراد كامل : من مقال له في الكاتب المصري .

ويزعم بعض الحبشان أن المسيحية دخلت الحبشة قبل سنة ٣٣٠ م بمدة كبيرة ، وبخاصة في شماليها الذي ظهرت فيه بوادرها في سنة ٣٠ م ولكن انتشارها كان بطيئاً . ولا يزال الحبشان المسيحيون يتمسكون بكثير من عادات اليهود ، وشعائرهم الدينية . وتشبه كنائسهم ببيع اليهود في شكلها الخارجي ، وفي نظامها الداخلي . ويكثر القسيسون والرهبان والشماسون^(١) في الحبشة كثرة عظيمة . ويقدرهم البعض بخمس سكانها المسيحيين . وهم بوجه عام جهال أميون ، لا يتصنونون عن إتيان المنكر ، ولا يتعففون عن ارتكاب الخطيئات اعتقاداً منهم أن الله يغفر ذنوبهم إذا ما تابوا ، وقاموا بفروض دينية معروفة عندهم .

وهم معفون من الجندية ، ولا يعملون عملاً منتجاً ، ولكنهم طفيليون^(٢) ، يعيشون على ما يبتزونه من الفلاحين والصناع . وهم فوق أنهم الرؤساء الروحانيون ، المدرسون والقضاة وضباط المباحث في الحلات والقرى .

وتكثر الكنائس في الحبشة كثرة ملاحظة . ويزعم بعض الرحالين أن عددها ١٥٠٠٠ كنيسة ، وجلها أخصاص حقيرة تقام في الغالب على رؤوس التلال . وهناك بعض الكنائس الكبيرة أشهرها كنيسة القديس جورج في أديس أبابا وكنائس لا ليبالا (Lalibala) المسماة بيت مقدس الحبشة . وهي كنائس فريدة ، منقورة في الصخر الأصم ، شديدة الشبه بمخزاة فرعون في بلاد العرب . إذا رأيتها حسبتها بناء مشمخراً من الحجر المرصوص ، أو الأسمنت المسلح . تحوى كل كنيسة منها ، وعددها

(١) لا يحتاج رسم الشماسين إلى مؤهلات ما ، ويكفى أن يدفع من يريد أن يكون شماساً قدرأ شيئاً ، ولقد روى بعض الرحالين مشهداً في أثناء تجواله آثرنا أن نقله بالفاظه قال :

"A number of men and children present themselves at a distance and

there stand from humility, not having to approach him (المطران). He then asks who they are, and they tell him they want to be deacons. On this with a small iron cross in his hand after making two or three signs, he blows with his mouth twice or thrice upon them saying "Let them be deacons."

(2) . . . "parasites, and parasites they are, for they serve no useful purpose and exist on the taxes from the people working on the land",

إحدى عشرة كنيسة، عشرات الغرف والردهات. وهي ذات أبواب ونوافذ دقيقة الصنع. ويحج هذه الكنائس^(١) الناس للتبرك. وينسل إليها المرضى الذين يبعثون فوق البركة الشفاء.

ومعظم الكنائس الخبثية الأخرى مظلمة في الداخل. ليس بها نوافذ، ولكن بها أبواباً كثيرة يخصص كل منها لفئة خاصة من الناس. فباب القسيسين في الجهة الشرقية. وباب الرجال في الجهة الشمالية. وباب النساء في الجهة الجنوبية. ولقد لحظ أحد السائحين صورة الشيطان منقوشة فوق باب إحدى الكنائس، فسأل قسيساً عن سبب نقشها في هذا المكان، فأجابته بأنه نقشت صورته في هذا المكان لتذكر الرجال عند دخولهم الكنيسة بنجس النساء ومكرهن، وبأفعالهن القبيحة التي تشبه أفعال الشياطين.

وأجراس معظم الكنائس الخبثية قطع من الحجر يضرب بعضها ببعض فتحدث صوتاً يسمع عن بعد كبير.

(ب) المسلمون :

وفي الحبشة مسلمون كثيرون، منتشرون في جل أنحاءها. ويكونون الأكثرية الساحقة في الشرق^(٢) والجنوب الشرقى^(٣) والجنوب^(٤)، وفي الجهات الشمالية الغربية القصوى^(٥).

وأول من حمل الإسلام إلى الحبشة مهاجرو المسلمين الذين لجئوا إليها فراراً من كفار قريش، فأحسن النجاشي وفادتهم، وأكرم مشواهم. ومنذ ذلك الحين

(١) يعزى تحت هذه الكنائس إلى الملك لالبيلا (القرن الثالث عشر)، ويرغم الحبشان أنه أوحى إليه بموقعها وبرسومها، فاستقدم لذلك نحو ٥٠٠ نحات من الاسكندرية وبيت المقدس فأنحوا تحت إحدى عشرة كنيسة أكبرها وأجلها وأدقها صنعا كنيسة مدينا عالم أى مخلص العالم.

(٢) حيث يسكن الدناكل. (٣) حيث تمتد بلاد الصومال إلى داخل حدود الحبشة.

(٤) حيث يقطن الجلا. (٥) حيث تمتد بطون من القبائل السودانية.

أخذ الإسلام ينتشر فيها انتشاراً بطيئاً ، وذلك بواسطة تجار العرب المسلمين ، حتى القرن الرابع عشر ، فوفد إلى الحبشة قوم من قریش ، اختلف في أصلهم . فقيل « أنهم من بني عبد الدار ، وقيل من بني هاشم ، فنزلوا في أرض جبرت ، وهي من أراضي الزيلع . وأقاموا بمدينة أوفات » وعرف جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح إلى أن كان منهم عمر الذي كان يلقبه قومه بالشمع ، ولآه الخطى (ملك أمهه) مدينة أوفات وأعمالها . فحكم بها مدة طويلة . وصارت له شوكة قوية . وشكرت سيرته حتى مات ، وترك أربعة أولاد أو خمسة ملكوا أوفات ، من بعده واحداً بعد آخر وخلفهم أحفاده إلى أن تولاهم حفيده حق الدين ، وكان شديد التعصب لدينه ، فأكره كثيرين من الحبشان المسيحيين على اعتناق الإسلام . ثم حارب سلطان أمهرة سيف أرعد ، وشن الغارة على بلاده وأسلم على يد حفيده محمد سعد الدين عشرة آلاف حبشى أو يزيد ، وأسلم على يد أخيه أحمد بشر لا يحصى عددهم . وخاض أخوه غمار حرب دينية ، فأسلم على يديه خلق كثير^(١) .

وفي القرن السادس عشر قام بعض سلاطين المسلمين في الصومال بغزوات عدة أسلم في أثناءها من الحبشان خلق كثير . ففي سنة ١٥٣٨ ميلادية أغار سلطان زيلع على الحبشة ، وأخضع كثيراً من أرضها ، وخرّب مدينة أكسوم .

وأكبر غزوات المسلمين في الحبشة هي التي قام بها الأمير الصومالي أحمد بن محمد الأجراني^(٢) الذي اخترق الحبشة غازياً من حدودها الجنوبية إلى أقصى حدودها الشمالية ؛ واستشهد في إحدى الوقائع . وثأر له الأمير نور الدين الذي خلفه . وأسلم في أثناء هذه الغزوات عدد كبير من الحبشان .

ولقد استنجد الحبشان بالبرتغاليين ، إخوانهم في الدين فحفظوا لنجدتهم ، وصدوا

(١) القرينى : الإلام .

(٢) ويلقب بالأشول . وكان قائداً ماهراً ، وسياسياً قديراً ، ترقى من جنسدى إلى مرتبة

القيادة والإمارة ، فقد ولى إمارة هرر .

جيوش المسلمين ، بعد أن أصيبوا (البرتغاليون) بهزائم عدة (سنة ١٥٤٣ م) وبذلك انتهى عصر هذه الحروب .

ويبلغ المسلمون الذين ينتمون إلى أصل حبشى ألف ألف من الأنفس ، أو يزيدون .

وهم بشهادة السائحين الأوروبيين والأمريكيين ، أحسن ملبساً ، وأنظف جسماً ، وأصدق قولاً ، وأيمن نقيبة من إخوانهم المسيحيين .

والمسلمين الحبشان أئمة ، وعلماء ، وفقهاء ، ومدارس خاصة بهم يتعلم فيها أبناؤهم ، ومساجد يعبدون الله فيها .

ويشتغل معظمهم بالتجارة . ويتولى كثير منهم مناصب عالية في الدولة ، ويهيمنون بصفة خاصة على مصلحة الجمارك .

ولا يزال الإسلام ينتشر في الحبشة ، وبخاصة بين سكان الأقاليم التي أخضعها الحبشة في أوائل القرن العشرين سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين^(١) .

واقدم بلغت سرعة انتشار الإسلام في هذه الأقاليم درجة أفضت مضاجع كثير من المبعوثين المسيحيين (المبشرين) في الحبشة الذين أوجسوا خيفة من أن يصبح يوماً دين الأكرثية ، ليس في هذه الجهات فحسب بل في الحبشة جميعها^(٢) .

(١) وفي ذلك يقول أحد الرحالين الغربيين . . . ولم أر حتى الآن أي أثر لنجاح البعوث التبشيرية الغربية ، ولكن على النقيض من ذلك ، توجد دلائل قوية تثبت أن الإسلام ينتشر بين سكان تلك الجهات انتشاره في جهات أفريقية الأخرى ، ويؤكد هذا القول كثير من الكتاب الأمريكيين والسويديين والفرنسيين ، لأنه معروف للجميع أن كل مهاجر مسلم مبشر بدينه في كل بلد يهاجر إليها . . .

(٢) وفي ذلك يقول الرحالة نفسه ما أثرنا نقله من غير ترجمته :

“It would be a remarkable happening, if the ancient Abyssinian Church, that has resisted the attacks on its faith, of so violent a character for so many years, should succumb to the peaceful penetration of Moslem teaching at his stage of its history.”

وفي الحبشة قبائل مسلمة كثيرة^(١). ينتسب معظمهم إلى أصل عربي^(٢). ولقد كتب عنهم صاحب^(٣) كتاب حاضر الحبشة ومستقبلها (ص ١١٨ — ١١٩) ما يلي : « امتازوا بقوة البنية ، والصبر على المكاره ، واحتمال الخطوب . وأفرادهم أذكاء ، وذوو احتيال في مناهضة الأعداء عجيب ، وبسالة في القتال أعجب . يتخلقون بأخلاق العرب ، فيرعون الجار ، ويضيفون الغريب ، ويعرفون مسالك الطرق . ولكل قبيلة عميد يلقب بالسلطان » .

وأشهر هذه القبائل هي : —

١ — جبرت :

وهي قبيلة تسكن في المقاطعة المسماة باسمها في شاوة ، وينتمي أفرادها إلى قريش ، وهي أرقى القبائل الحبشية المسلمة وأرجحها عقلا . ويميلون إلى التفقه في الدين ، وتحصيل العلم ويتفانون في حب دينهم . ومنهم المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور .

٢ — قبيلة مرعى الشريف :

ويدعى أفرادها أنهم أشرف وافدون على الحبشة .

٣ — الدنبلا :

تقطن في مقاطعة سنهيت ، وهم حضريون يسكنون القرى ، ويحترفون الزراعة ، والحياكة ، وبعض الصناعات الأولية الأخرى . وهم كثير ، يبلغ عددهم نحو مائتي ألف نفس ويدعى بعضهم أنهم أشرف .

(١) بقدرهم بعضهم بنحو مائة قبيلة .

(٢) لا يابيه لهذه النسبة أحد لأنها في حاجة إلى تحقيق .

(٣) الأستاذ رضوى تادرس وهو قبطي مكث في الحبشة مدة طويلة .

٤ — الدنا كل :

الدنا كل أو الأفار يسكنون السهول المنخفضة المحيطة المسماة باسمهم^(١) وهي تكون مثلثاً شمالي بلاد الصومال ، وشرقي الهضبة الحبشية ، وتمتد إلى البحر الأحمر . وتسكن بينهم ، أو هي منهم ، قبيلة مرعى الشريف التي تقدم ذكرها . وهم بدو من أصل حامى ، ينتجعون الكلاب بأنعامهم من أبقر وإبل وأغنام . ويتكلم الدنا كل لغة حامية ، شديدة الشبه بلغة الصومال ، ولا غرو فالصومال والدنا كل من أرومة واحدة .



فتى من الدنا كل

والأفارى نحيف الجسم ، رشيق القوام ، متوسط الطول^(٢) ، جميل الوجه ، مهذب الملامح ، على الرغم من شدة سواد جلده . وهم طبقتان : (١) طبقة الأسيارا أو الحجر^(٣) ، وهم أشرف البلاد المسيطرون على شئونها ، وأصحاب السلطة والجاه .

(١) ويطلق عليها سهل السمهر أيضاً ، وربما يكون مشتقاً من اسم طبقة الأشراف الأسيارا .
(٢) يبلغ متوسط طول الأفارى ١٦٠ سم . (٣) لعلمها السمير .

(ب) طبقة الأوميرا ، أو البيض ، وهم الطبقة السفلى أو المحكومون .
على أن الذين زاروا بلاد الدنا كل ، وعرفو أهلها ، لا يرون فارقاً في اللون بين
السمر والبيض . وقد يكون السبب في إطلاق لفظي السمر والبيض على صنف واحد
من الناس تعرض طبقة البيض إلى غزو السمر . ويغلب على الظن أنهما من عنصر
واحد ، هبطا من الهضبة الحبشية في موجتين متتاليتين غمرت إحداهما الأخرى .
والدنا كل أجلاف محشوشنون ، جلهم حفاة ، عمارة الأكتاف ، وكلهم بهمة ،
وكلهم مقدم جصور . يهجم أحدهم على الأسد ، وليس معه إلا رمحه ، فيصرعه بطعنة
نجلاء . والرمح أزم لهم من قناة الراعي ، وعصا الأعمى . ومأربه الأول في الرمح
الاعتماد عليه واقفاً ، فيستطيع أن يرفع قدمه اليسرى إلى أعلى فخذ الأيمن ويمضي
الساعات على هذه الحال ، كما يفعل طائر الشروش .

وذلك المنظر من المناظر المألوفة التي يراها المجتال في بلادهم^(١)
ومن العادات الوحشية المرعية عند بعض قبائلهم أنهم لا يسمحون لفتيانهم
بالزواج إلا إذا أثبتوا رجولتهم وشجاعتهم بقتل شخص أجنبي ؛ وهم يعدون الحبشان
أجانب يفضونهم ، ويحتقرونهم ، ولا يعترفون بسلطانهم عليهم .
ونساء الدنا كل حرات طليقات ، يظلمن بأعباء الحياة ، ويشاركن الرجال
في أعمالهم ، فيرعين الإبل والأغنام ، ويرشدن القوافل ويقاتلن وحدهن من تحدته
نفسه بمهاجتهن . ومنهن الصائدات القانصات .

(١) الأستاذ مراد كامل : عامان في الحبشة .

الصوماليون^(١)

الصومال كلمة لا يعرف أصلها الصوماليون ، ويرغبون عن إطلاقها على أنفسهم ويرجعها بعض العارفين إلى صو - مال وهما كلمتان معناهما في اللغة الصومالية : اذهب وأت بلين . والصوماليون معروفون بإكرام الضيف . واللبن طعامهم الأول المفضل . واسمه لذلك أول ما يسمعه الغريب الطارق .

ويقسم الصوماليون أنفسهم ثلاثة أقسام :

(١) القسم الأول ويسمى الأشا ، أى الخالص ، وينتمى أفراد هذا الفريق إلى بعض أشراف العرب^(٢) الذين هجروا أوطانهم بسبب الفتن والثورات ،

(١) فى هذا الفصل لانكتب عن صومال الحبشة فقط ، ولكننا نكتب عن الصوماليين جميعاً والذين يسكنون القرن الشرقى ، ويفصلهم عن الجلا ، خط ممتد من خليج تاجورا إلى نهر الجب .

(٢) ايس هؤلاء الأشراف الذين يحرص أشا الصومال على الانتساب إليهم أول من هبط من العرب سواحل أرضهم ، فما لاريب فيه أن جماعات عدة من تجار العرب وصلوا إليها ، وأسسوا فى عهد البطالة « بل وفى أزمان سابقة ، مراكز تجارية مهمة بالشاطئ الأفريقى الشرقى ، وفيما إلى خليج عدن بالبلدان التى كانت تحت حكم الملك مفريتس ، وأن ثغر موسيلون الكائن فى الشمال الغربى من رأس جردفون كان يزاحم ثغور حضرموت » المسيوجيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية لمخ ص ٤٤

وقد ضعفت صلة العرب بالصومال ، وإفريقية الشرقية فى عهد الرومان وفى عهد غلبة الحبشة على اليمن ، ولكنها رجعت فقويت ككرة أخرى عقب طرد الحبشات منها ، فقد استردوا مركزهم التجارى ، فكانت سفنهم تنقل البضاعة إلى سقطرة ، وسواحل بلاد عادل وغيرها من سواحل إفريقيا الشرقية ولكن لم يكن للعرب إلى ذلك الحين بتلك السواحل سوى المراكز التجارية التى تقدم ذكرها ، لأنهم لم يكونوا قد أسسوا بعد مراكز سياسية ذات هيئات نظامية خاضعة للقوانين ، ومدبرة الأمور بإدارة ثابتة .

ولم تصبغ حركتهم ، فى تلك الجهات ، بصبغة استثمار ، أو فتوح ، حتى القرن الأول الهجرى ، الذى حدثت فى أثناءه أحداث عظام ، واندلعت فى إبانه الفتن والحروب بين المسلمين ، فهجر كثير من أشراف العرب أوطانهم ، وهبطوا ساحل إفريقيا الشرقى ، واتخذوه وطناً ثانياً لهم . !
ويؤخذ من أقوال المؤرخين أن سلالة زيد كانوا أول من استوطن تلك السواحل من الأشراف وعمرها بها المدن .

التي حدثت في فجر الإسلام وضحاها ، وكادت تقوض بنيانه ، وتهدم أركانه ، لولا رحمة من الله .

والأشأ أحسن الصوماليين وجوها ، وأقلهم سمرة ، وأعرقهم إسلاما . ويسكنون الصوماليين البريطاني والإيطالي .

وعلى الرغم من أصل هذا الفريق العربي ، فإنهم لا يتخاطبون باللغة العربية ، ولا يحسنون الكلام بها حين يستعملونها في بعض الشؤون الدينية .

٢ — القسم الثاني ، ويسمون هاوية^(١) . ولا يعدم القسم الأول خلصاً لغلبة الدم الحامى والممحات الحامية عليهم . وهم لذلك أقل تأثراً بالدم العربي ، وبالثقافة العربية . وقد كان قسم كبير منهم إلى عهد قريب ، وثنيين ، يصدقون للسحرة ، ويأتون بالكهان ، ولكنهم الآن مسلمون ، مشهورون بالتعصب لدينهم ، وبسهولة الانقياد لمشايع الطرق الصوفية ، المنتشرة انتشاراً عظيماً بينهم .

= وجاء بعد الزيود جماعات أخرى من العرب ، في أزمان مختلفة ، أهمها وأبقاها أثراً في تلك البلاد، من قدم منهم من الإحساء، ومن جهات جزيرة العرب الأخرى ، المطلة على الخليج الفارسي . ولقد ذكر مؤرخ برتغالي أن عدداً كبيراً من العرب فروا من جور سلطان الإحساء ، فركبوا البحر ، وساروا في ثلاث سفن تحت قيادة إخوة سبعة وهبطوا الشاطئ الأفريقي . « وكانت مقدشو ، أول مدينة تأسست وقتئذ ، ثم تلتها مدينة بروة ، وهي التي كانت في عهد احتلال البرتغاليين جمهورية تحت سيادة اثني عشر شيخاً ، فصارت مقدشو مملكة قوية ، ذات شوكة ونفوذ على عربان السواحل » (جيان ص ٧١) .

ولقد غلب هؤلاء العرب القادمون من سواحل خليج فارس الزيود على أمرهم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى داخل القارة، وهناك اختلطوا بأهلها الوثنيين، وتزوجوا منهم، وامتزج بذلك الدم العربي بالدم الزنجي ، ونتج عن هذا الامتزاج « أمة خليط من العرب والزنج ، متوسطة بين الاثنين، سواء أكان ذلك من جهة العنصر والعقيدة ، أم من جهة البلاد التي احتلوها، والتي كانت متاخمة من الجهة الشرقية لأراضي المسلمين أما من جهة المغرب فتاخمة لأراضي أبناء تلك البلاد فكان هؤلاء المختلطون من سماهم العرب بدواً . . . (جيان ص ٧١ — ٨٥) .

(١) « من أم قبائل الهاوية قبيلة الأجران التي تسكن بين نهر الجب والبلاد المعروفة باسم شبلة وقد اتصلت قبيلة الأجران بالزيديين الذين تقدم ذكرهم ، ولحمت أنسابها بأنسابهم . ومن قبيلة الأجران السلطان محمد الأجراني مدوخ الحبشة » .

ويزعم الأشأ أن الهاوية من نسل الجلا أسلافهم على أن كثيراً من الثقة يرون أن الفرق بين الأشأ والهاوية — إذا كان هناك فرق بينهما ضئيل وضئيل جداً في الملامح واللون .

وتسكن قبائل الهاوية نجد أو جادين ، بين نهر وب شبيلي ونهر نوجال ، وهم لذلك أكثر الصوماليين اتصالاً بالجملا ، وأشدهم تأثراً بهم .

٣ — القسم الثالث ويسمون الرهانوين . ويسكنون غربي الهاوية أى حول نهر الجب ، وفيما بينه وبين نهر طانة . وهم أكثر القبائل الصومالية تأثراً بالزنج ، أى سكان إفريقية الأصليين ، فى ملامحهم وثقافتهم ، وذلك لجوارهم لهم ، واتصالهم بهم . وعلى الرغم من تباين الدماء التى امتزجت بعضها ببعض ، فأنتجت الصاماليين . وعلى الرغم من اختلاف مقادير أنواعها المختلفة ، فقد نشأ فى الصومال نوع من البشر له طابع خاص ، يميزه عن سائر الأنواع ، وذو لمحات خاصة تفرقة حتى عن جيرانه الأقربين .

والصومالى بوجه عام فارح الطول ، نحيف ، حسن القامة ، كامل النمو ، ذو جبهة بارزة ، مستديرة ، وعينين نجلاوين ، غائرتين ، وأنف إغريقى ، مستقيم أقى ، وفم منتظم ، وشفتين غير غليظتين ؛ ولكن شعره جعد ، صوفى كشعر الزنوج . ويتدرج لونه من الأسمر الفاتح إلى الأسمر الداكن .

وهو خفيف ، سريع الحركة كالغزال ، شديد البأس ، قوى الشكيمة ، يكبر الشجاعة والإقدام ، والجود والكرم .

ومن قصصهم التى تبين عن أخلاقهم ، وتفصح عن بعض صفاتهم القصة الآتية : زعموا أنه كان لأحد سراة الصوماليين وشيوخهم ابنة بارعة فى الجمال ، ذات حسن ودلال ، وقد واعتدال . فأقسم بالله العظيم أنه يقتل أول رجل يطلب يدها . وكان رجلاً أيداً ، قوياً ، ماهراً فى استعمال الخنجر والحربة .

وذاع صيت ابنته ، وكثر عشاقها ، ولكن لم يجسر أحد منهم على طلبها منه . وكان لهذا الشيخ قطعان كثيرة من الماشية والأغنام ، وفى خدمته مئات من الرعاة . وكان من عادته أن يركب كل صباح فرساً فارها له ، ويسوق مواشيه وأغنامه إلى المرعى .

ويتخلف الرعاة في الحى ، ليتناولوا غداءهم ، ثم يلحقون به في نحو الساعة
الثامنة صباحاً ، فراقبه أحد عشاق ابنته ، فرآه يخرج إلى المرعى ، وحيداً أعزل ،
فاعترض سبيله ذات صباح ، وهو راجع .



هيئات السومال

فسأله الشيخ ما باله ؟ وماذا يريد ؟

فأجابه الفتى « أريد الزواج من ابنتك .

فقال له الشيخ ، وهو محنتق : ألم تسمع أيها الفتى خبر قسى ؟

أغرب عن وجهى . ولا تسع إلى حتفك بظلفك .

فقال له الفتى : « إتنى لا أرهب الموت ، ولا أخاف الردى ، فلا تطمع فى أن

أخلى سبيلك قبل أن تجيئنى إلى طلبى .

فأرغى الشيخ وأزبد ، وهدد الفتى ، وتوعده بالموت ، ولكن الفتى لم ينثنى

عن عزمه . فلم يرى الشيخ بدأ من أن يذعن له . وقال له « فليكن أيها الفتى ماتريد !

فهبنا إلى المنزل لتفاوض فى أمر الزواج .

وكان الشيخ يضمير السوء للفتى ، وينوى قتله حالما تصل يده إلى خنجره ! لأنه

خلف أمام ملاً من قومه ، وهو الرجل الصالح ! فكيف تحنت يمينه ، ولكن الشيخ

رجع لنفسه فسألها ! لماذا أقدم هذا الفتى على هذا العمل الجرىء ، والأمر الجسيم ،

وهو يعلم أنه قد يلتقى حتفه ! ولم أحجم غيره من الفتیان ؟ فلا ريب فى أنه شجاع

ذو جنان ثابت ، وقلب رابط ، ولا مشاحة فى أنهم رعايد جبناء .

فسأله الشيخ وهو يحاوره « لماذا أقدمت على مثل هذا الأمر الخطير ؟ !

فقال الفتى : « إعلم أيها الشيخ إنى معروف بين قومى بنحوال ثلاث :

الخصلة الأولى أنى لا أخشى إنساناً .

الخصلة الثانية أنى أجود بما فى يدى لمن يطلبه ، وقلبى فرح وصدرى منشرح .

الخصلة الثالثة أنى لا أستحى من شىء عمله .

فأعجب الشيخ بالفتى ، وأسرفى نفسه ، أنه إذا كان صادقاً كفر عن يمينه ، ورضيه

زوجاً لابنته .

ورجما إلى حلة الشيخ ، وزفت ابنة الشيخ إلى الفتى .

ورغب الفتى فى المقام فى حلة صهره ، فرفض الشيخ وقال له « ينبغى لك أن

ترحل بزوجتك ، وتلحق بأهلك ! فقال الفتى للشيخ أجل لقد قلت حقاً .
وجهاز الشيخ له حمولة ثلاثة جمال من حصر، وفرش وهدايا ثمينة وأعطاه زاد ثلاثة
أيام ، وقال له : « إني أعلم أنك فقير ، فخذ هذا لك ، ولا تطمع أن يصلك مني غيره .
وبعد رحيل الفتى وزوجته ، دعا الشيخ خمسين فارساً من فرسان قبيلته المغاوير ،
وقال لهم : « إن ابنتي وزوجها سافرا ومعهما ثلاثة جمال ، فاتبعوها إلى اليوم الرابع ،
حيث يكون قد فرغ مامعها من زاد ، واهجموا على الفتى هجمة صادقة ، فإذا فر هارباً
فاتبعوه ، واقتلوه ، وردوا إلى ابنتي والجمال الثلاثة ، وإذا قاتل دفاعاً عن حريمه وماله ،
فلا تمسوه بسوء ، وأتوني بهما .

وسار الفتى وزوجه نحو حلة أهله . وفرغ مامعه من زاد بعد ثلاثة أيام .
وفي اليوم الرابع بينما كان الفتى جالساً تحت شجرة يتفياً ظلها ، وبماني مضض
الجوع هو وزوجه ، رأى فرسان حميه قادمين في تعبئة حرب ، فنهض مسرعاً ، وأسرج
فرسه وامتطأها ، واختطف حربته وترسه ، وهجم عليهم وقاتلهم قتالاً شديداً !
فصاحوا به قائلين : هوى ! هوى ! أمان ! نحن قوم صهرك ، وحاملون رسالة لك منه .
فرحب بهم ، وقفل راجعاً معهم مليباً دعوة حميه .

ولم يكن عند الفرسان زاد . فأمر الفتى أن يذبح لهم جمل من جماله الثلاثة .
فقات له زوجه ، إنك لأحق ! كيف تذبح الجمل وهو يحمل ثلث متاعنا ، ونحن
فقراء ، لا نملك إلا هذه الجمال الثلاثة وما عليها !

فقال لها وهو يحاورها : إنني لم أعود البخل ! فكيف يكون عندي جمال ، وفي
صحيتي خمسون رجلاً جياً ؟

وذبحت الجمال الثلاثة في أيام العودة الثلاثة ، وترك ما عليها من متاع في الفلاة .
وفي صباح اليوم الرابع وصل الجميع إلى حلة الشيخ ، وأعلمه قومه بما كان من
الفتى ، فسر كثيراً . ورحب به أيما ترحيب .

وفي يوم من الأيام بينما كان الشيخ وصهره جالسين يتجاذبان أطراف الحديث
سأل الفتى عن السبب في اتصافه بالخلال الثلاث التي تقدم ذكرها .

فقال الفتى : أما أبى لا أخاف الموت ، فلأنى رأيت في أول معركة شهدتها ، أن
جبناء القبيلة ، الذين كانوا في المؤخرة ينتفضون خوفاً ورعباً ، تصيبهم حراب الأعداء ،
التي كان يزوغ عنها شجعان القبيلة وفتيانها فتدبهم ، فعلت أن أجل المرء لا يستأخر
ساعة ولا يستقدم . وأن حياة الإنسان في يد الله ، وأنه إذا كان مقدراً علينا أن نموت
في الحرب ، فلانموت حتف أنفنا . وإذا كان مقدراً علينا أن نموت حتف أنفنا فلا بد
أن نموت حتف أنفنا ، ولو حضنا ألف حرب وحرب .

أما أبى كريم فإبى في الحقيقة ، لست كذلك ، لأبى أعتقد أن كل ما نملك من
عند الله . فإذا ما أعطيت فإبى أعطى ما ليس لى . والذي يعطى ما ليس له ، لا يعد
كريمًا . ولقد أتى على حين من الدهر لم أكن كريمًا ، بل كنت أعد من البخلاء
الذمومين . والذي شفانى من هذا الداء ، حادث كان له أثر كبير في حياة أسرتنا : وهو
أنه في يوم من الأيام منذ بضع سنين جاءنا سائل ، وكنا من ذوى اليسار ، نملك
قطعاناً من الماشية والأغنام ، فسألنا أن نتصدق عليه ، فبهرناه ، وأسأنا معاملته ،
وطردناه شر مطرد . فذهب إلى جار لنا فقير ، لا يملك إلا شاة واحدة ، فرحب الجار
الفقير بالسائل المسكين . وأضافه ثلاثة أيام سوياً . وذبح له شاته الوحيدة . فسخرنا
من الجار الفقير الذى خرج عما يملك من حطام الدنيا ، وأعطاه لسائل فقير مثله . ولم
يمض على هذا الحادث بضع سنين ، حتى أصاب قطعاننا مرض فتك بها فتكا ذريعاً ،
ولم يبق لنا بقرة ولا شاة ، وأصبحنا فقراء معدمين . ورزق الجار الفقير مالاً من حيث
لا يحتسب ، وأصبح من الأثرياء المعدودين ، فعلت أن الرزق من عند الله يؤتبه من
يشاء ، ويزعه ممن يشاء ، وأن العطاء والسخاء لا يفقران . وأن الشح والبخل
لا يغنيان ، فصرت من ذلك الوقت كريمًا أجود بما عندى .

مم قص عليه السبب في أنه لا يستحي من شيء !!
والصومالي تقي ورع . ومن أشد المسلمين استمساكا بالعروة الوثقى . يقيم الصلاة
في أوقاتها . ويؤتي الزكاة . ويصوم رمضان ، ويحتفل بحلوله احتفالاً صახباً .
ويأتم بالقرآن ، ويهتدى بهديه . وهورقيق الشعور . شديد الحس . يتأثر بما يراه
أو يسمعه تأثيراً عظيماً ، ويشارك غيره وجدانه ، ويحكي بعضهم أفعال غيره على الرغم
منه : فإذا ما شاهد باكياً يبكي لبكائه ، أو ضاحكاً ، أغرق في الضحك من غير
أن يعرف السبب الداعي للبكاء أو الضحك . وإذا ما أشار محدثه بيده اليمنى أشار بها
هو كذلك ، أو لوح بيده ، لوح هو بها كذلك ، ولقد حكى أحد المصريين^(١) الذين
أوفدتهم الحكومة المصرية إلى الحبشة للتدريس في مدارسها ، أنه أراد مرة أن يمزح
مع صومالي رأى في يده نقوداً ، فالتقط حجراً . ورمى به فرمى الصومالي ما في يده
من النقود تأثيراً .

ويصف بعض الرحالين الغربيين الرجل الصومالي بأنه وديع ، باش ، صبور ،
معتد بنفسه ، رءوف بأهله وذويه؛ عطوف على بني وطنه ، جم الظرف ، حلوالدعابة ،
ولكنه مكار (ويقصدون المكر السيء) سريع الغضب ، قاسى القلب . وهذه
صفات إن صحت كلها ، فيها بعض التناقض .

ومن خلائق الصومالي أنه يحترم المرأة ، ويقدم فيها العفة وطهارة الذيل . ويعد
الحفاظ بشرفها من أقدس واجباته . ويفالى أهل دوا إحدى المدن الصومالية التجارية
فلا يميزون للأجانب غير المتزوجين البقاء فيها . ولذا كان واجباً على التجار الغرباء
أن يتزوجوا من أهلها ، إذا أرادوا الإقامة فيها مدة ، طالت أو قصرت . ولا يسمح
لهؤلاء أن يصطحبوا أزواجهم ، أو أولادهم أوهما معاً إذا مارحلوا عن البلد المذكور .

(١) الأستاذ جورج عبد الملك ، المدرس بالمدارس الثانوية الأميرية

والمرأة الصومالية^(١) رشيقة القوام ، تعنى بزيتها ، بارعة فى فن التجميل ، ولكنها عفة ، رحيضة الثوب كما قدمنا . وهى نشيطة تقوم بتربية أولادها ، وبصنع فرش بيتها كالحصر والبرد ، وبصنع الدلاء ، وما يحتاجه من آنية من الحشائش اللدنة . والصومالى كالأعرابي ، يحافظ على ما ورثه عن آبائه وأجداده من عادات وتقاليد . ويعنى مثله بحفظ نسبه ، ويلقنه أبناءه ليباهوا به .

والصوماليون كالعرب قبائل مختلفة : وتنقسم كل قبيلة منها بطوناً ، والبطون أخفاذاً ، والأخفاذاً أسراً . ويهيمن على شئون الأسرة مسئول يسمى العاقل .

وفى الصومال طوائف كثيرة يختلفون فى الجنس ، والملامح والصفات ، والعادات والحرفة العامة ، عن كلا الأشا والهاوية . ويمدونهم أقل مرتبة منهما ، فلا يتزوجونهم بناتهم ، ولا يتزوجون منهم ، وأهم هذه الطوائف وأحراها بالذكر :

١ — المدجان :

ويمتازون بقصر قاماتهم ، يعيشون على الصيد ، وهم فى درجة الموالى عند العرب ، ينزلون جماعات حول أسر الأشا أو الهاوية لتحميمهم . ويؤدون لها فى مقابل هذه الحماية بعض الخدمات كقطع الأخشاب وحمل الماء .

٢ — اليبير :

ويحترفون صناعة الجلد ، ويكادون يحتكرونها فى أرض الصومال ، ويعيش عدد كبير منهم على عمل التعاويد ، والتأمم ، ويشغل أكثرهم بالشعوذة ، يسلبون الناس نقودهم بما يقومون به من حيل خادعة ، وبما يأتونه من أعمال يظنها الناس سحراً أو كرامه ، وهم أشبه الناس بحواة مصر أو مشعوذى الهند .

ويروى الصوماليون عن جد قبيلة اليبير قصة هى العجب العجاب نجملها فيما يأتى :

(١) أى نساء الأشا والهاوية .

كان جد قبيلة اليبير ساحراً ماهراً ، وكان معاصراً للشيخ إسحق جد إحدى قبائل الأشا . وكان الشيخ إسحق هذا أحد أشرف حضرموت ، جاء ومعه أربعون نفرأ من قومه إلى بلاد الصومال في القرن الثالث عشر ، فطاب له العيش فيها ، واتخذها وطناً ثانياً له . ولم يلبث الشيخ طويلًا حتى كثر أتباعه وشيعته . وعز بذلك جانبه . ولقد نى إلى الشيخ إسحق خبر الساحر وأعماله المعجزة ، فدعاه إليه . فلبى الساحر دعوته ، وتواعد الرجلان جبلاً معروفاً ، فوافاه الساحر على سفحه .

فسأل الشيخ الساحر : أصحيح ما بلغنى عنك ؟

فقال الساحر : نعم ، إن الذى بلغك عنى قليل من كثير !

قال الشيخ : أرنى طرفاً من أعمالك !

قال الساحر : أطلب ما تريد .

قال الشيخ : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فادخل فى هذا الجبل من هذا الجانب ،

واخرج من جانبه الآخر .

قال الساحر : إن ذلك على هين .

ومشى نحو الجبل ، ثم دخل من جانب ، وخرج من جانبه الآخر .

فدهش الشيخ ، وقال لليبير الساحر : دعنى أراك تقوم بهذا العمل مرة أخرى

ففعل اليبير .

ففكر الشيخ طويلاً ، ثم طلب منه أن يدخل فى الجبل مرة ثالثة ويخرج منه ،

فدخله الساحر ، وقبل أن يخرج منه ، رفع الشيخ كفيه ضارعاً وقال : ربى ق

الناس شره أو اجمل جوف الجبل مستقره ! فاستجاب الله له ، ولم يخرج اليبير

من الجبل !

و بلغ ابن اليبير ما فعل الشيخ بأبيه ، فجاهه مطالباً بديته ، فقرر الشيخ أن موت

اليبير صالح عام . وينبغى لذلك أن يشترك الصوماليون جميعاً فى دفع ديته . وقرر

أن كل صومالي يولد له ولد ، يعطى جلد عقيقته لأحد أبناء اليبير المسجون .
وتعيش قبائل اليبير إلى يومنا هذا على هذه الأسطورة التي ربما اخترعها خيال
أحد أذكياهم لابتزاز أموال الصوماليين .

وإذا ما ولد لصومالي ولد ، وجاءه يبير ، أعطاه جلد عقيقته أو ثمنه . ويدخل
اليبير البيت ويقرأ بعض تعاويذه ، ثم يذهب إلى الخلاء ، فيقطع من بعض الشجيرات
المعروفة لهم قطعاً صغيرة من أغصانها ، ويلفها بقطعة من الجلد ، ويخيطها ، فتصبح
تميمة ، تربط على ذراع الصغير . وإذا ما جاء يبير آخر ، ورأى هذه التيممة على ذراع
الصغير ، عرف أن قد سبقه أخ له ، فينصرف من غير أن ينبس ببنت شفة .

ولا يحاول أحد من الصوماليين إخفاء أبناءهم من اليبيرين لأنهم يعتقدون
أن من يفعل ذلك منهم تنزل به نازلة ، وتحل به مصيبة .

ولقد دفع كثيراً من الصوماليين ، جذب أرضهم إلى أن يولوا وجوههم شطر
البحر ، ففاص بعضهم فيه طلباً للؤلؤ . وركبه بعضهم فأصبحوا بحارة ماهرين ،
يجوبون البحار والمحيطات ترام في كثير من موانئ الهند وجزيرة العرب ، وبريطانيا
العظمى وأمريكا . بيد أن جل الصوماليين رعاة ينتجعون الكلاً والماء ، ويقل ترحالهم
إذا كثرت المطر ، فجاد المرعى ، فشبت الجمال والأبقر والأغنام ، والمعزى فزاد اللبن .

والصوماليون البدو ماهرون في حزم أمتعتهم وربطها وفي صنع أثاث بيوتهم
وماعونها مما تنبت أرضهم من حشائش . والحصر الصومالية مضرب الأمثال في الجودة
والإتقان . وماعون بيت الصاماليين كما عون كل البدو قليل ، خفيف الحمل .

وعلى الرغم من قلة أمطار أراضي الصومال بوجه عام فإنه يتخلل كلاًها شجيرات
ذات جذور طويلة ترسلها إلى أعماق بعيدة ، باحثة عن الماء . فإذا ما وجدته امتصته ،
وخزنته في انتفاخات لها . وعلى هذا الماء المخزون شعبها وريها ، في أشد أيام السنة
حرارة ، وجفافاً ولهذا كانت هذه الشجيرات دائمة الاخضرار ، وكانت طعاماً شهيماً

للحيوانات التي هيئتها الطبيعة للحياة في هذه الأرض القليلة الماء والزرع .
وبلاد الصومال المطلة على البحر سهلة منخفضة ، شديدة الحر ، وجلها أجذب
محمل ، لجفاف الهواء الذي يهب عليها من البحر^(١) . وكلما بعدت عن الساحل ارتفعت
وزادت أمطارها وقلت حرارتها ، وكثرت حشائشها وأشجارها ، وسهل العيش فيها .
ولكن الصوماليين على الرغم من ذلك يفضلون العيش في السهل الساحلي الأجذب
ذى الحرارة الشديدة^(٢) .

(١) ويعلل بعض الجغرافيين جفاف الرياح التي تهب على بلاد الصومال من المحيط الهندي ، بأن
بجوار ساحلها منطقة ضيقة من الماء درجة حرارته أقل من درجة حرارة سائر ماء المحيط الذي
يجاورها ، فإذا ما مرت عليها الرياح المحملة ببخار الماء بردت ، فتكاثف بخارها ، فسقط أمطاراً على
هذه الشقة الباردة ، ووصل إلى الساحل جافاً .

(٢) متوسط درجة الحرارة في السهل ١٦٥ في الصباح الباكر و ٣٨٥ في ساعات الظهر ،
وهي ٥° أعلى في السهل من النجد . وفي الصومال أربعة فصول مناخية :-

- (١) فصل جاف جداً وحرار جداً ويمتد من يناير إلى أبريل .
- (٢) فصل المطر الغزير (مايو ويونية) .
- (٣) فصل الحر الشديد والرياح الموسمية الجنوبية الغربية (يولية — سبتمبر)
- (٤) فصل المطر القليل (أكتوبر — ديسمبر) .

أثر الإسلام في الصوماليين

ما كاد الإسلام يظهر في شبه جزيرة العرب ، و ينتشر في ربوعها المختلفة ، ويصل إلى سواحلها الجنوبية ، حتى حمله تجار العرب ، وبجارتهم إلى أرض الصومال وما يليها من ساحل إفريقية الشرقى ، وانتشر بين السكان الأصليين ، انتشاراً سريعاً ، لأنه صادف هوى في أفئدتهم ، فخلقهم خلقاً جديداً ، وبث فيهم روحاً جديدة ، لم يكن لهم بها عهدٌ فشعروا بعزة ومنعة لم يتذوقوها من قبل . ولا بدع فقد أخرجهم الإسلام من ظلام الوثنية ، وأوهامها ، وشعوذة سحرتها وكهانها ، إلى نور اليقين والمعرفة ، ورفعهم من حضيض المهجبة إلى سماء مدينة دهش الأوربيون حين رأوا آثارها . وعجبوا من قيامها على سواحل القارة المظلمة .

والعرب من أعرق الأمم ديموقراطية ، والإسلام من أشد الأديان استمساكاً بأهدابها ، فأصبح العربي بعد اعتناقه دين الإسلام ديموقراطياً بطبعه ودينه ، فلم يأنف أشرافهم ، حين نزحوا إلى هذه البلاد من الاختلاط بالأفريقيين والارتباط بهم ، برباط الزوجية والنسب . وألف ذلك الاتصال بين قلوبهم فأصبحوا إخواناً في السراء والضراء ليس لعربي على أفريقي فضل إلا بالتقوى ، وكان أمرهم شورى بينهم ، وفي ذلك يقول أحد الكتاب الغربيين :

« إن من أعظم مزايا الإسلام في شرق أفريقية ، كما في سائر البلاد الإسلامية ، تشجيع الناس جميعاً على تثقيف عقولهم ، وعلى إبداء آرائهم ، والكشف عن بدائع أفكارهم ، ومكنون أسرارهم »

ولقد كان لكل فرد من سكان شرق أفريقية أن يحضر مجلس الشورى ليبدى رأيه ، ويناقش آراء غيره . . .

وإن تاريخ أدبهم في أوج عظمتهم ليبين عن روح الديمقراطية العالية ، وحبهم لوطنهم ، وكرههم للعسف والظلم ، وشفقتهم بحريتهم ، وحرصهم على استقلالهم ، وتفانيهم في الدفاع عنه ، وبذل كل مرتخص وغال في سبيل الزود عن حياضه « » .
ولقد نشطت التجارة بين مسلمى الصومال وبقية الأمم الإسلامية الأخرى ، وكثر لهذا ما لهم ، فشيدوا مدناً كبيرة ، تضاهاى كثيراً من مدن العالم الهامة ، جمالاً وأبهة وسعة . بنوا فيها القصور الشم ، واختطوا خلالها الشوارع المنسقة أحسن تنسيق . وشيدوا في ربوعها المساجد العظيمة ، والحازن التجارية المتسعة ، ودور العلم الفخمة . ورفلت تلك المدن في حلة من البهجة والرواء ، تعجب العين ، وتستهوى النفوس . ولقد ارتقى مستوى المعيشة فيها حتى أصبحت تشبه في كثير من نواحيها ، المعيشة في بغداد أو دمشق في أبلهج أيامها .

واستمر الحال كذلك ، حتى اصطدم المسلمون بالبرتغاليين الذين طافوا بغربى أفريقية وجنوبها (في القرن الخامس عشر) ووصلوا إلى شرقها ، وتغلبوا عليهم ، لتفوق أساطيلهم البحرية ، ومعداتهم الحربية . فهدموا القلاع ، وحرقوا المساجد والدور . وقتلوا خلقاً كثيراً . واضطر كثير من المسلمين إلى هجر أوطانهم ، ووغلوا في داخل القارة المظلمة حاملين دينهم ، وافتهم وعاداتهم ، وبذورهم المحببة إليهم فبشوها جميعاً في البلاد التي حلوا فيها .

وهكذا كان قدوم البرتغاليين إلى شرق أفريقية ، على الرغم مما اقترفوه من جرائم وحشية ، نعمة في ثوب نقمة .

ولم ينقطع تأثير العرب المسلمين ، والمسلمين الأفريقيين ، الذين اعتنقوا الإسلام ، فرغمهم كما قدمنا مكاناً عالياً ، بقدوم الأورو بين الآخرين ، واقتسامهم أفريقية ، وذلك لاعتماد حكام المستعمرات الأورو بين على النابيين ، النشيطين منهم (أى من المسلمين) في حفظ النظام بين الوطنيين ، وفي شغل بعض المناصب ، للفارق العظيم بينهم وبين

الوطنيين الوثنيين ، حتى زعم المبشرون أن هؤلاء الحكام ، وبخاصة البريطانيين والألمانيين منهم ، يجابون المسلمين ، الأمر الذي ساعد على انتشار الإسلام في أفريقية ، وعظم شأنه فيها .